"التلقي الحداثي للنص القرآني"

عبد القادر الشايط

دراسات تفسيرية/ علوم القرآن/ جامعة محمد الأول وجدة (المغرب)

ملخص البحث

نشأت حول القرآن الكريم اتجاهات متعددة في التفسير الحديث، تسعى إلى إعادة النظر في مناهج التفاسير القديمة، فتعددت الدراسات القرآنية وتنوعت بدافع فهم الخطاب القرآني ومحاولة تفهيمه إلى المخاطبين فظهرت ألوان جديدة في التفسير وتغيرت مناهجها من مدرسة إلى أخرى، وتعددت القضايا والمواضيع التي تعالجها كل مدرسة، حيث بذل علماء الأمة وسعهم في استبانة أسرار القرآن وحكمه، كما اجتهدوا للوصول إلى مقاصده العليا، فتنوعت طرائقهم في معالجة قضايا الأمة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وتجديد صياغتها وفق منابع الإسلام الصافية، لما لها من دور استراتيجي في تجديد البناء الحضاري للعالم الإسلامي.

وكان هذا سببا في ظهور تحيزات فكرية ومذهبية ونزعات إيديولوجية في مدارس التفسير الحداثية، وانتشار التفسير المذموم، المخالف للغاية العظمى التي نزل القرآن من أجلها، واحتفظت لنا المكتبة الإسلامية ببعض مؤلفاته.

ومن هذا المنطلق فإن هذا البحث يسعى إلى دراسة الدواعي والأسباب التي ساهمت في ظهور هذا النوع من التفسير، وإدراك المرجعيات والأسس والمنطلقات المؤسسة لهذه المشاريع التفسيرية الحداثية.

Abstract

Around the Qur'an, several trends have emerged in modern interpretation, seeking to reconsider the old methods of interpretation, The scholars of the Ummah have exerted their utmost in identifying the secrets of the Qur'an and its wisdom. They also strived to reach its supreme purposes. D. The .civilizational construction of the Islamic world

Hence intellectual and sectarian prejudices and ideological tendencies emerged in the modernist schools of interpretation and the vilified interpretation spread, which is the great offense for which the Qur'an .came down, and the Islamic Library has retained some of its wo works

From this standpoint, this research seeks to study the reasons that contributed to the emergence of this type of interpretation, and the perception of references and foundations of .modernist interpretative projects these

مقدمة

على الرغم من التراكم الذي تحقق في ميدان تفسير القرآن الكريم حديثا وقديما، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي الطويل، وهي حقيقة تشهد لها النقول، وتؤكدها النصوص والبحوث المنجزة في ميدان التفسير والدراسات القرآنية في القرآن الكريم .

ومع ذلك فقد ظهر في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، اتجاه تأويلي، ينعت نفسه بالحداثي والجديد والمعاصر، يسعى هذا الاتجاه إلى تفسير النص القرآني، بمناهج بديلة، وبآليات جديدة، غير معهودة ولا مألوفة بين المفسرين والمشتغلين بالدراسات القرآنية قديما وحديثا.....

فهذه المشاريع حملت في بدايتها دعوة صريحة وإعلانا واضحا يتحدد في ادعائها وإعلانها بأنها تشكل مرحلة جديدة في مجال تفسير القرآن الكريم من خلال حملها لخطابات ونصوص تدعو علنا وصراحة إلى التنكر الكلي لتراث المفسرين القدماء ومصادرة التراث التفسيري الذي شيده علماء الإسلام على امتداد تاريخ الإسلام.

مما جعل سؤال المشروعية يطرح بحدة حول الدواعي والأسباب التي ساهمت في ظهور هذا النوع من التفسير، غير أن الجواب على سؤال المشروعية المحمولة في هذه المشاريع الحداثية، لا يتيسر إلا بمعرفة وإدراك المرجعيات والأسس والمنطلقات المؤسسة والمشكلة لهذه المشاريع التي اشتهرت باسم المشاريع الحداثية والجديدة والمعاصرة، وهذا الإشكال المركب هو الذي سنحاول إظهاره وإبرازه في هذه الورقة البحثية.

المرجع والسند في تفسير القرءان الكريم

هناك ملاحظة بارزة، وقوية في التراث العربي الإسلامي تأخذ كل مهتم ومشتغل ومتابع للدراسات والبحوث القرآنية بشكل عام، وتفسير القرآن بشكل خاص، وهذه الملاحظة هي محورية البحث في القرآن الكريم وفي تفسيره، وفي الاشتغال بالعلوم المتعلقة به أو المتفرعة عنه أو الخادمة له.

بحيث تجسدت هذه العناية بالقرآن الكريم في اتساع البحوث والدراسات والكتابات والندوات والمؤتمرات واللقاءات البحثية والدورات العلمية، التي تنجز وتعقد باستمرار وبشكل مستمر وبدون انقطاع حول القرآن الكريم، وحول علومه.

رغم أن الوجهة الغالبة والمهيمنة هي وجهة التفسير والاستمداد، أي تفسير القرآن الكريم، وعرض طرق بيانه، ومنهجية تلقيه .

يشهد لهذا ويؤكده ما أنتجه علماء الأمة الإسلامية على امتدادات التاريخ من البحوث، ومن الدراسات، و ما أنجزوه من فهارس، و ما حققوه من معاجم، وما وضعوه من موسوعات لها صلة قوية، ومباشرة بالبحث في القرآن الكريم....

وهذا الاهتمام المتزايد والكبير بتفسير القرآن الكريم والاشتغال بعلومه، يعود إلى محورية الخطاب القرآني بين المعارف الإسلامية الحاضرة في التراث العربي الإسلامي .

و الذي يفسر هذه العناية المتزايدة التي توجهت إلى تفسير القرآن الكريم، هو حضور مجموعة من العلوم الخادمة للنص القرآني على مستوى استخلاص واستمداد المعنى من النص، ومن هذا القبيل علم أصول

التفسير، وأصول الفقه، وعلوم القرآن، وعلم المفردات، وعلم المعجم وعلم الدلالة....وهي العلوم المنعوتة عند القدماء بعلوم الآلة أو العلوم المسددة للفهم، وهي علوم لها صلة مباشرة بعلوم اللغة العربية .

فرغم التنوع والاختلاف الحاصل بين المذاهب في قراءتها وتفسيرها للقرآن الكريم، فان المنطلق الجامع والمشترك بينها كان دائما هو الانطلاق من مرجعية النقل من حيث هي المرجعية الأولى المعتمدة والسديدة في تفسير القرءان الكريم.

ما يعني أن الجامع بين المذاهب الإسلامية باختلافها وتعددها، هو الانطلاق من هذا المبدأ، والأخذ بهذا المرجع والالتزام بهذا الثابت، والتقيد بهذا الضابط الذي يعد من كليات علم التفسير، ويتحدد في أن تفسير كتاب الله مشروط بأصول قارة، وبضوابط ثابتة وقواعد ملزمة تعمل مجتمعة ومشتركة على إظهار المعنى وإبراز المراد وإدراك القصد في النص القرآني ..

فالأصل في التفسير كما قال الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره كان دائما كان هو الانطلاق من النقل، واعتباره الأصل وجعل النظر خادما ومكملا للنقل، وهذه قاعدة ملزمة وضابط أساسي لكل من أراد الاشتغال، أو الإقدام على تفسير كتاب الله.

القراءات الحداثية: السياقات والأصول التاريخية

رغم التراكم الذي تحقق في البحوث القرآنية، وفي الدراسات التفسيرية، على امتداد التاريخ الطويل للأمة الإسلامية، فقد ظهرت في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، عدة اتجاهات تأويلية، تسمي نفسها أحيانا بالجديدة وأحيانا أخرى بالحداثية والمعاصرة غايتها تفسير النص القرآني، بمناهج جديدة، غير معهودة ولا مألوفة بين المفسرين والعلماء قديما وحديثا...

بحيث اجتهد أصحابها وروادها في تطبيق بعض مبادئ اللسانيات ومنهجيات التأويل على النصّ القرآني

ما يعني أن هذا الاتجاه المنعوت بالاتجاه الحداثي أو الجديد في التفسير سعى إلى تطبيق مبادئ، واليات التأويليات المعاصرة، ومناهج تحليل الخطاب اللساني على النص القرآني، بدون مراعاة الفوارق أو إدراك السياقات التي كانت الأصل والمرجع في نشأة الاتجاهات الحداثية في التفسير...

ما جعل مقدمات هذا الاتجاه ومداخله في التفسير والتأويل تحمل مزالق نظرية و سقطات منهجية، ما يلزم منه وعنه رصده ومتابعته، والقيام في شأنها بمراجعات فكرية رصينة، ودراسات علمية متأنية، وقراءات نقدية لأسسها النظرية، ومرجعياتها الفكرية ومتابعة الأنساق المفاهيمية، والأطر المرجعية، والنواظم المنهجية التي كانت من وراء ظهورها و نشأتها.

المرجعيات والمنطلقات في القراءات الحداثية

***المناصرة للمذهب**

إن مشاريع القراءات الحداثية تدرج ضمن مشاريع القراءات المذهبية التي تتجه إلى خدمة الاختيارات الشخصية والمذهبية للمفسر على حساب الخدمة العلمية النص الذي هو القرءان الكريم...

يقول محمد عابد الجابري في هذا السياق:" إن النقد التاريخي للنصوص الدينية اليهودية بدأ مع سبينوزا في رسالته الشهيرة "رسالة في اللاهوت والسياسة" وقد استمر هذا النوع من النقد الذي دشنه في الثقافة الأوربية هذا الفيلسوف اليهودي الهولندي منذ القرن السابع عشر إلى القرن العشرين. وليس هاهنا مكان استعراض تاريخ هذا النقد، ولا أنواعه ومراحله ولا ردود الفعل التي قامت ضده، حسبنا أن نشير هنا إلى أن النقد الحديث للنصوص المقدسة في أوربا قد انكب على مناقشة صحة نسبة تلك النصوص إلى من تنسب إليهم عادة، النبي موسى وأصحاب الأناجيل، من جهة، وعلى بيان العلاقة بين تلك النصوص وبين التجارب الحية للجماعات الدينية الأولى التي ظهرت تلك النصوص بين ظهرانيها من جهة ثانية، ثم ما يتبع ذلك من قضايا تخص مسألة التفسير، تفسير النص المقدس....."..

هذه المؤشرات تجعلنا نقول ونقر بان القراءة الحداثية هي قراءة تحريفية اسقاطية تجاهل الخصوصية للنص القرآني .

هدفها ومبتغاها إبعاد النص عن دلالته الحقيقية، والعمل على تقديم اختيارات القارئ الشخصية، ومناصرة توجهاته الفكرية، وآراؤه الذاتية، حتى وان كانت هذه المناصرة على حساب ما يحمله النص من معان ودلالات ومقاصد أصلية .....

منح السلطة الكاملة للقارئ في ممارسة النقد

ما يميز مرجعية هذا الاتجاه ومنطلق في القراءة والتفسير و التأويل انه يمنح الحرية الكاملة للقارئ من اجل أن يمارس هذا القارئ سلطته التأويلية على النص حتى وان كان هذا القارئ لا يملك الكفاءة العلمية ولا يحمل الشروط التي من شانها إن تعينه على قراءة النصوص وتفسيرها .

ومن شان منح هذه السلطة لقارئ النص أن يتحول النص إلى ممر ومعبر لإيصال وتمرير اختيارات هذا القارئ الشخصية، والعمل على إسقاطها بالقوة على النص الذي هو موضوع القراءة.

إن اختيار هذه المناهج الحداثية منح السلطة الكلية لقارئ النص ،وإلغاء سلطة النص أي أصوله وضوابطه ومعاييره، وقواعده المؤسسة والناظمة له في القراءة والتأويل والتفسير واستمداد المعنى منه، من شانه أن يجعل المعاني في النص متعددة ونسبية، وأحيانا متباينة و متضاربة ومتباينة.

ومنح السلطة الكاملة للقارئ قد يفضي تجعل القارئ لا يأخذ بالضوابط والقواعد اللغوية التي ترجع إلى منطق اللسان العربي، والى الخصوصيات اللغوية واللسانية والثقافية المميزة بين النص المقروء وهو النص القرآني، وبين المنهج المختار والمنتقى في هذه القراءة وهو منهج تعود دعائمه ومرجعياته وأسسه إلى المناهج غربية في تحليل الخطاب التي نشأت في الغرب، وجاءت خصيصا لنقد النصوص الدينية القديمة لإزالة الاضطراب والغموض عنها....

مصادرة القواعد الضابطة للفهم

إن ممارسة سلطة القار ئ على النص طريق ومقدمة إلى مصادرة القواعد وتخطي الأصول الناظمة والمسددة لفهم النص بصفة عامة...

إن هذه المصادرة هي اختراق ونكران للمناهج القديمة المعمول بها بين المفسرين القدماء التي تقيد القارئ بالقواعد، ولا تسمح له باختراق المعنى الواحد المحمول في النصوص المقدسة.

بموازاة مع هذه الدعوة في جعل القارئ يمارس سلطته على النص، فقد دعا مناصرو القراءات الجديدة للنص بان لا تقيد المناهج القديمة القارئ بأصولها، وتقننه بقواعدها، فهي مناهج تعارض اختراق سلطة النص...

وبالتالي تقول **إن** تجريد النص من قواعده التي بموجبها يضبط ويفهم ويقرأ وإحلال محله سلطة القارئ التي تعترف له التأويليات الجديدة بالقدرة والكفاءة في التعامل مع النص، وحتى وان كان هذا القارئ لا يمتلك الكفاءة اللازمة والعلوم الضرورية في قراءة النص، يعني هذا بصريح العبارة دعوة إلى إفراغ النص من معانية الأصلية ومن محتوياته التي يقرها له اصطلاح التخاطب، وأعراف اللغة العربية ، وتحويله إلى نص فارغ يحمل تصورات القارئ والمتلقي الخاصة، ما يعني انه نص قابل لاحتمال وقبول أي معنى يريده له قارئه ومتلقيه"..

والقول بان مناهج المفسرين القدماء تحد من إعمال النظر والعقل في ممارسة التفسير قول لا سند له، فإعمال النظر في القرءان الكريم عملية مشروعة إذا كانت هذه العملية منضبطة بالضوابط العلمية ومسترشدة بأصول تفسير النص القرآني كما هي متعارف عليها ومعهودة بين علماء التفسير.....

تعددية المعنى في النص

إن السند في القول بان النص مفتوح لأي معنى، وقابل للتعدد في المعاني هو استناد معظم أصحاب هذا الاتجاه والمناصرين له إلى كون طبيعة النص الديني بصفة عامة والقرآني بصفة خاصة نصوص في طبيعتها قابلة و حاملة للتأويل من حيث اتساع دلالة معان ألفاظها وحضور المجاز بجانب الحقيقة، وهذا ما يرشحها لأن تكون قابلة لأكثر من معنى، ومنفتحة لأكثر من قراءة، كل قراءة قابلة لان تحمل أكثر من دلالة بسبب

تعدد الفهوم واختلاف مستويات المتلقين والقراء لفهم هذه النصوص بسبب تنوع سياقات وظروف القراءة وهي سياقات محكومة بعاملي الزمان والمكان...

والقول بالتعدد في معان النص أدى بأصحاب هذه القراءات الجديدة للنصوص الدينية في مصادرتهم للتراث التفسيري القديم بجميع مدارسه واتجاهاته، هو أن هذه التفاسير القديمة تنطلق من أن هناك معنى واحدا مودعا في النص، وما على المفسر إلا أن يعمل على إصابة واستخلاص ذلك المعنى، مما يجعل سلطته في قراءته للنص غائبة، فهو بهذا الوصف أسير للنص...

النص واحد بينما معانيه وقراءته متعددة، ولا بد من تقبل هذه الحقيقة، لأن من شان القبول بهذه الحقيقة وتبني معانيها ومناصرتها، أن نحصل على إحداث هزة ورجة، بل على قطيعة قوية في الوعي والوجدان، وان نتمكن من الفصل بينما هو مادي وبين هو دنيوي في قراءة النصوص.

ما يعني أن التفاسير القديمة اختارت مناصرة المعنى الواحد على حساب المعنى المتعدد، و انتصارها على المعنى الواحد في النص هو قصور في الفهم وتضييق لمسالك التأمل والنظر في ثراء النص وعجز عن إدراك طاقات النص القرآني التعبيرية، وحاجات المؤول في اختراق المعهود والجاهز في المعاني المعهودة.

إن المبدأ الأساسي عند أصحاب الاتجاهات الحداثية هو أن أي نص فهو حمال لعدة معان ودلالات، والقارئ من حقه أن يرجح أي معنى حتى وان لم يكن يمتلك أدوات الترجيح أو فاقدا لها.....

فالنص الحي هو النص المنفتح القابل لاحتمال لأكثر من معنى، بالمقابل فان النص الذي لا يحتمل إلا معنى واحدا فهو نص ميت لا يستطيع الامتداد في الزمان والمكان.

وهذا من أبرز مبادئ الاتجاه التأويلي الحداثي هو أنه يتأسس على مواجهة سلطة القراءة الأحادية للنصوص المقدسة القديمة.

وقد نجم عن القول بتعددية المعنى في النص واحتماله لأكثر من معنى في قراءته تبعا لأحوال القارئ وتباين سياق النص، القول بتعدد وتنوع مستويات قراءة النص تبعا لأحوال القراء، ولعل الذي يعطي مشروعية هذا التباين والتعدد في القراءة هو خلفيات القارئ الفكرية، واختلاف الحقب التاريخية وتباين العصور التي يتواجد فيها هذا القارئ....

وبإلغاء القانون والمعيار الضابط والمسدد لقراءة النصوص الدينية والشرعية بصفة عامة يتحول المعنى نسبيا في هذه النصوص، ومحتملا لأكثر من معنى بين القراء، كل طرف يؤوله حسب حاجته واختياراته وأرائه ....

وقد أحسن الشيخ محمد رمضان البوطي عندما علق على المدعين والقائلين بتعددية المعاني في النصوص "... فقد يخرج الجاني بدون عقوبة، ولا متابعة مادام النص يحتمل معان عديدة ونسبية، فقد يستوي فيها الجاني والمجنى عليه...

إنها من إحدى الحماقات الكبرى التي جاءت لتبشر بها هذه المنهجيات الجديدة المسماة بالقراءات الحداثية....".

غياب الكفاءة اللغوية

إن اغلب المناصرين لهذا الاتجاه لا يمتلكون اللغة العربية، فعدم ضبط العلوم الضابطة للتفسير قاسم مشترك بين العاملين والمناصرين لهذا المشروع، فرواده تغيب عندهم الكفاءة اللغوية بحيث يغيب عنهم التمكن من علوم اللغة العربية.

وعدم الكفاءة اللغوية أدى إلى تخطي المنهجية الإسلامية في التعاطي والتعامل مع دلالات النصوص الشرعية من أجل تطويع هذه النصوص وتسخيرها لأهداف ذاتية.... .

فسعيهم وغايتهم كان هو تطبيق مبادئ اللسانيات ومنهجيات التأويل وطرائق تحليل الخطاب على النص القرآني مما أدى بهم إلى السقوط في كثير من الأخطاء و الوقوع في عدد من المزالق المنهجية بحكم التباعد القائم بين النص والمنهج..

ومن ثم فان كل تفسير لا يستند إلى منطق اللغة العربية في الأداء، وقواعدها في الإفهام وضوابطها في التخاطب فهو تفسير غير سليم، والتماس السلامة في التفسير يلزم عنه تحكيم معايير اللغة العربية في تفسير الخطاب، لأن الخطاب الشرعي عامة والقرآني خاصة خطاب نزل بلغة عربية ،تحكمه قواعد اللغة العربية، فكان من الطبيعي أن يجري على هذا الخطاب ما يجري على اللغة العربية من قواعد وظواهر ومقتضيات لغوية ونحوية ودلالية من حذف وإضافة وتصريح وكتابة وخضوع، وتحكيم قواعد اللغة العربية في الاستنباط تمليه عربية الخطب القرآني وهو ما أكده صاحب كتاب مجازا لقرءان في مقدمة كتابه....

علما أن عناية علماء الإسلام اتجهت في وقت مبكر إلى تأسيس البيان المؤدي إلى فهم كتاب الله، من خلال وضع الضوابط إرساء الشروط المتعلقة بالفهم وبيان كيفية استمداد المعنى من القرءان الكريم....

معارضة القواعد اللغوية

إن التأويليات الجديدة الهادفة إلى قراءة النص القرءاني كانت تسعى جاهدة إلى إفراغ النص من معيارته الضابطة لفهمه ، ومن قواعده التي بموجبها يقرا النص. وإحلال محله سلطة القارئ التي تعترف له التأويليات الجديدة بالقدرة والكفاءة في التعامل مع النص ،وحتى وان كان هذا القارئ لا يمتلك الآليات الأولية ، والقواعد الأساسية في قراءة النص...."...

فالانضباط لقوانين اللسان العربي ومعهوده في التخاطب قيد أساسي وضابط منهجي لازم في التفسير،لان كتاب الله لا يفهم إلا وفق مدلول اللغة العربية...

والسند في اعتماد اللغة العربية في التفسير يعود أن القرءان الكريم يشارك ا للغة العربية ويوافقهما في الجانب المعجمي الدلالي التركيبي والأسلوبي. وهذا يعني أن القرءان الكريم جار على سنن العرب في مخاطبتهم ومحاورتهم، ومعهود تعبيرهم في اللغة العربية.فالقرءان الكريم يحمل كل خصائص اللغة العربية من وصل وفصل وإيجاز وإطناب وتقديم وتأخير... وهذا أمر مشهود له، ومعترف به بين جميع علماء اللغة العربية... .

لان دعوة أصحاب القراءات الحداثية هو أن العلوم المعاصرة من لسانيات ،ومناهج تحليل الخطاب ونظريات التلقي بمقدورها أن تجعل الخطاب القرآني خطابا متجددا منفتحا على كل التأويلات والقراءات التي تستجيب للحاضر..

إن التقصير أو تجاهل باللغة العربية التي بها نزل القرءان الكريم اعتداء صريح على النص الذي نزل باللغة العربية.

وبالتالي نقول إن التمكن من اللغة العربية ومن علومها ضرورة للمفسر، مادام أن النص القرآني هو نص عربي كتب بالغة العربية ،وبأسلوبها وقع فيه التخاطب ،فهو حامل لأعلى مستويات الانجاز اللغوي،وهو ما يلزم منه استحضار كل ما له صلة بمجال التركيب والمعجم والتصريف ،والدلالة مع عدم إغفال البعد السياقي في النص القرآني.. .

ومن شأن استحضار الشروط والضوابط التي بها يقرأ النص الشرعي أن نضع حدا لهذا النوع من القراءات التي لا هم لها سوى التلاعب بالدلالات والمعاني الأصلية والتبعية للنصوص الشرعية...

اهدار مصدرية قدسية النص

إن المناصرين لهذا الاختيار يدعون علانية أن في مجال النقد تستوي النصوص، وتتماثل، بصرف النظر عن جنسها، أو عن نوعها أو مصدرها، فالنصوص التي تستمد شرعيتها، وأصولها من الوحي تتماثل مع النصوص التي تصدر وينتجها البشر.

وهذه التسوية تلزم ضرورة ولزوما إخضاع هذه النصوص، ووضعها في محك النظر والنقد والتفكيك وتقييدها بسياقها التاريخي، من أجل رفع القداسة وإلغاء التعالي عنها، وجعل النص الديني يستوي مع النص البشري بصفة عامة.. .

والمنطلق المعرفي لأصحاب القراءة الحداثية أن ما دون وكتب حول القرآن الكريم، بما في ذلك كتب التفسير قد مارست قراءة إيمانية قوية على النص القرآني ،ولم تكن لها الشجاعة أن تمارس عملية النقد على النص القرآني.. .

فهي اختارت أن تستند إلى مسلمات ومبادئ معرفية ومنهجية غير قابلة للنقاش أو المراجعة أو التقويم. وهذا ما يحول ويمنع من ممارسة قراءة نقدية للنصوص الدينية، وذلك بالاعتماد على مناهج تحليل الخطاب الديني واللغويات المعاصرة...

فالمصدر الإلهي لا يخرج النصوص الدينية عن أصلها، ولا يميزها عن النصوص البشرية، لأنها نصوص تجسدت في التاريخ وفي اللغة، وتوجهت بمنطوقها إلى البشر في واقع تاريخي محدد، لأنها محكومة بجدلية الثبات والتغير والتحول....

والأخطر في هذا الاتجاه هو الدعوة إلى إخضاع النصوص وقراءتها بالمنهج التاريخي، والقصد من هذا المنهج هو الحد من امتدادات القرءان الكريم في بعده الزماني والمكاني....

ـورغم تنوع واختلاف المذاهب في قراءتها وتفسيرها القرءان الكريم للقرءان، فان المنطلق الجامع والمشترك بينها كان دائما هو الانطلاق من مرجعية القرءان **من حيث هي المرجعية الأولى** المعتمد ة في تفسير القرءان الكريم . العلوم المشتغلة فيه، والمناهج الساعية إلى تفسير القرآن الكريم، ورغم اختلاف مرجعيات هذه العلوم، و منطلقات أصحابها ومؤسسيها وروادها في التفسير والبيان والاستمداد فان الجامع بينها، **والمشترك فيها هو** الانطلاق من هذا المبدأ، والأخذ بهذا المرجع والالتزام بهذا الثابت والتقيد بهذا الضابط الذي يعد من كليات وأصول علم التفسير، ومن مداخله الأساسية هو أن تفسير كتاب الله مشروط ومقيد بأصول قارة ،وبضوابط ثابتة وقواعد ملزمة تعمل مجتمعة ومشتركة على إظهار المعنى وإبراز المراد وإدراك القصد في النص القرآني، والعمل بدون تعسف ومن دون إقحام الذات في استمداد المعنى والدلالة من النص القرآني.فالأصل في التفسير كما قال الإمام القرطبي كان **دائما كان هو الانطلاق من النقل،** واعتباره الأصل وجعل النظر خادما ومتمما ومكملا للنقل، وهذه قاعدة ملزمة وأساسية لكل من أراد الاشتغال،

أو الإقدام على تفسير كتاب الله.ذلك أن القاعدة الأساسية لمن تصدى للتفسير، واختار التأويل لكتاب الله هو أن ينطلق من المنقول ويعده الأصل، ويستعين بالمعقول ويعده خادما و مكملا ومعينا على التفسير والبيان لكتاب الله.قال الإمام النووي الشافعي":ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في غير معانيه من ليس من أهله، والأحاديث في ذلك كثيرة والإجماع منعقد عليه...".

على هذا الأساس والاعتبار نقول مما ينبغي لزوما وضرورة لمفسر القران **الكريم أن لا يعمد إلى تفسير** القرءان الكريم برأيه المجرد دون الاستناد إلى دليل أو الأخذ بحجة أو برهان نقلي، **لان التفسير** بالرأي المجرد دون الاستناد إلى دليل نقلي تحكم ودعوى "لان المدعى بدعوى لا برهان عليها متحكم، والتحكم لا يعجز عنه احد..." .

بالمقابل لا ينبغي أن يفهم من هذا أن وضع قانون التأويل والتفسير يعني الحكر والوصاية تقييد على العقل، وعلى ممارسة الاجتهاد والنظر في النص القرآني، لكن نقول أن من شان التقيد بهذا المنهج أن يفضي إلى ضبط المعنى، ويرشد المفسر في الوصول إلى المعنى المراد في النص.. .

القراءات الحداثية السياقات التاريخية

رغم هذا التراكم الذي تحقق في البحوث القرنية، وفي الدراسات التفسيرية، على امتداد التاريخ الطويل للأمة الإسلامية، فقد ظهرت في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، عدة اتجاهات تأويلية،تسمي نفسها بالجديدة وأحيانا بالحداثية والمعاصرة غايتها تفسير النص القرآني بمناهج جديدة، غير معهودة ولا مألوفة بين المفسرين والعلماء قديما وحديثا...

وقد سعى هذا الاتجاه المنعوت بالاتجاه الحداثي أو الجديد في التفسير إلى تطبيق مبادئ، واليات التأويليات المعاصرة، ومناهج تحليل الخطاب اللساني على النص القرآني، بدون مراعاة الفوارق والسياقات التي منها

خرجت المرجع الذي استندت إليه، بمرجعيات مختلفة عن الهوية الحضارية للأمة الإسلامية، وبدون الأخذ بالضوابط اللغوية التي ترجع إلى منطق اللسان العربي، أو بدون استحضار الخصوصيات اللغوية واللسانية والثقافية المميزة بين النص المقروء وهو النص القرآني، وبين المنهج المختار والمنتقى في هذه القراءة وهو منهج تعود دعائمه ومرجعياته وأسسه إلى المناهج الغربية في تحليل الخطاب التي نشأت في الغرب، وجاءت خصيصا لنقد النصوص الدينية القديمة لإزالة الاضطراب والغموض عنها....

إن المرجع في هذه القراءات المنعوتة بالحداثية يعود تاريخيا إلى الفيلسوف الهولندي الذي عاش في القرن السابع عشر .وهو المسمى بسبينوزا "ت1677م". وقد أراد هذا الفيلسوف إنقاذ النص الديني من التحريفات المغالطات والأخطاء الكبيرة التي مني وأصيب بها في مساره التاريخي الطويل، والعمل على إصلاح التصحيف، وإبعاد التحريف عن الكتاب المقدس، حتى وان أدى هذا الإصلاح إلى اقتراح وفرض معان جديدة توضع في النص أو في هامشه، وتضاف إلى النص الأصلي لعل هذه الإضافة من شانها أن تخفق من حدة التناقض الكبير، وقوة الاضطراب المتواجد في النص الأصل.....

ما يعني صراحة أن تنزيل هذا المنهج على النص القرآني يعد أحد أشكال الانزلاق والانحراف الاختراق الخطير في عدم مراعاة الفوارق والخصوصيات والسياقات الثقافية والحضارية الفاصلة بين الثقافة العربية الإسلامية و الثقافة الغربية....

هذه الاعتبارات تجعلنا ندرج مشاريع القراءات الحداثية ضمن مشاريع القراءات المذهبية التي تتجه إلى خدمة الاختيارات الشخصية والمذهبية للمفسر على حساب خدمة النص الذي هو الهدف من تفسير القرآن الكريم...

يقول محمد عابد الجابري في هذا السياق:" إن النقد التاريخي للنصوص الدينية اليهودية بدأ مع سبينوزا في رسالته الشهيرة "رسالة في اللاهوت والسياسة" وقد استمر هذا النوع من النقد الذي دشنه في الثقافة الأوربية هذا الفيلسوف اليهودي الهولندي منذ القرن السابع عشر إلى القرن العشرين. وليس هاهنا مكان استعراض تاريخ هذا النقد، ولا أنواعه ومراحله ولا ردود الفعل التي قامت ضده، حسبنا أن نشير هنا إلى أن النقد الحديث للنصوص المقدسة في أوربا قد انكب على مناقشة صحة نسبة تلك النصوص إلى من تنسب إليهم عادة، النبي موسى وأصحاب الأناجيل، من جهة، وعلى بيان العلاقة بين تلك النصوص وبين التجارب الحية للجماعات الدينية الأولى التي ظهرت تلك النصوص بين ظهرانيها من جهة ثانية، ثم ما يتبع ذلك من قضايا تخص مسألة التفسير، تفسير النص المقدس....."..

هذه المؤشرات تجعلنا نقول بأن القراءة الحداثية هي قراءة تحريفية اسقاطية تجاهل الخصوصية التاريخية للنص هدفها إبعاد النص عن دلالته الحقيقية والعمل على تقديم اختيارات القارئ الشخصية ،ومناصرة توجهاته الفكرية ، وآراؤه الذاتية ،حتى وان كانت هذه المناصرة على حساب ما يحمله النص من معان ودلالات ومقاصد أصلية .....

ما يؤكد أن العديد من النصوص الإسلامية مورس عليها القراءات التعسفية التي تبعد النص عن مقاصده الأساسية التي نزل من أجلها، ولا تحمل من القراءة إلا الاسم، وإنها ارتكزت على أفكار الفكر الاسقاطي التاريخية، التي تتعامل مع النص تعاملا انتقائيا للتشكيك في تراثنا الإسلامي الهائل، القدح في ثوابت المسلمين ومرجعياتهم.

خاتمة

إن النتيجة التي يمكن الخروج بها بعد هذا التحليل الذي خصصناه للإشكال المنهجي في مشاريع القراءات الحداثية للنص القرآني هو أن أصحاب هذه المشاريع رغم زعمهم أنهم يتوسلون بالمنهج العلمي في التحليل، ويتمسكون بالحياد في الاستنتاج والموضوعية في البناء والتركيب، فإنه قد تعارضت مقدماتهم مع نتائجهم، و واتسمت قراءاتهم للنص بكثير من الاضطراب والتعارض والتناقض أثناء تفسيرهم للآيات، والتسرع في استصدار الأحكام والإبهام في الاستنتاج".

ولعل ذلك راجع إلى رغبتهم الجامحة في تسويق مشروعهم الفكري حتى ولو كان هذا التسويق على ثوابت القرآن الكريم وأصول الإسلام، وكذا على حساب المعاني الصحيحة غير المحتملة للتأويل التي تحملها النصوص الشرعية".

إن هذه المشاريع في نهاية المطاف ما هي إلا امتدادات للاتجاه الباطني الذي ساد قديما بين بعض المفسرين والذي وضع من ضمن أهدافه الأساسية استشكال المعنى على متلقي النص، وابعاد القارئ عن المعنى الأصلي للنص، وحتى التبعي الذي يحتمله النص وتشهد له اللغة في سعة معانيها في الأداء والتخاطب.

لكن هذه المشاريع لم يتيسر لها أن تصل إلى مبتغاها وأهدافها بسبب المقاومة الشديدة التي لقيتها من علماء الإسلام عامة وعلماء التفسير خاصة، حيث نشأت مدارس تفسيرية تدافع على التراث القديم باعتباره ركيزة أساسية لكل إصلاح، وتتبنى فكرا تجديديا يواكب متطلبات الحياة، وقامت بدراسات فاحصة تبين الأهداف المغرضة والخبيثة للقراءات الحداثية للنص القرآني التي يحاول مروجوها ضرب ثوابت الأمة الإسلامية، فكان

لهذه المدارس فوائد عظيمة في إحياء التراث الإسلامي القديم والاستفادة منه، والوقوف على مكامن القوة فيه، وإدراك مواطن الضعف وتصحيحه، وتمييز الصحيح من الضعيف، وحفظ النصوص من سوء الفهم والتأويل، الخاضع إلى التعصب والتمذهب، البعيد عن مقاصد الشرع، والبحث عن الطريق القويم لإخراج الأمة من تراجعها الفكري والحضاري.

قائمة المراجع والمصادر

..1/5- الامام القرطبي، مقدمة تفسير الجامع لأحكام القرآن،

-محمد حسين الذهبي(1986)، الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرءان الكريم دوافعها ودفعها، مكتبة وهبة، مصر.

- محمد عابد الجابري، مجلة مقدمات المغربية العدد:-1-السنة 1997.

.2007-السنة26 - عبد المجيد الصغير، .مجلةالاحياء النغربيةالعدد:

محمد كالو(2008)، القراءات المعاصرة للقرءان الكريم في ضوء ضوابط التفسير دار اليمان للنشر، -

- محمد حمزة (2011)، أفق التأويل في الفكر الإسلامي المعاصر، مؤسسة الانتشار .

)، اتساع دلالة الخطاب القرءاني،.دار الفكر.2010- نور لدين المنجد (

-مجلة مرفأ الكلمة (2005)، النص الديني والاتجاهات الحديثة، منتدى مرفأ الكلمة للحوار والتأصيل الإسلامي، مدينة قم، طهران .العدد.5

- محمد أركون، القرآن الكريم والقراءة الحداثية دراسة تحليلية نقدية لإشكالية النص عند للدكتور الحسن العباقي.

)، النص-السلطة-الحقيقة،المركز الثقافي العربي بيروت1996- ناصر احمد أبو زيد(

-محمد رمضان البوطي) 1994(، جنون القراءة الحداثية، محاضرة يرد فيها على دعاوي محمد اركون.

من مجلة التأويل المغربية.1)، للعدد2014-مقدمة - أحمد عبادي(

الطبري القرآن، آي تأويل عن البيان أبي عبيدة معمر بن المثنى، مقدمة مجاز القرءان، 10/1جامع-

.الحرستاني معروف

-محمد حمزة(2011)، أفق التأويل في الفكر الإسلامي المعاصر، مؤسسة الانتشار.

- أبي عبيدة معمر بن المثنى، مقدمة مجاز القرءان.

- احمد عبد الغفار(2003)، التأويل الصحيح للنص الديني، المعرفة الجامعية الإسكندرية.

- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: - جلال الدين السيوطي، لإتقان في علوم القرآن.

-محمد بن جرير بن غالب الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

- رقية جابر العلواني، اثر العرف في فهم النصوص.

.2013. ابريل :41 - الزاوي بغورة، محاولة في تحديد المفهوم للدكتور، مجلة عالم الفكر، العدد

.الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرءان الكريم دوافعها ودفعها لمحمد حسين الذهبي-

.محمد عابد الجابري، مجلة مقدمات المغربية العدد:-1-السنة 1997 -

--مجدي باسلُّوم)1426هـ=2005م(، ، يراجع المقدمة العلمية المتعلقة بالتفسير ومدارسه والتي جاءت في مقدمة تحقيقه لتفسير الماتريدي الصادر عن دار الكتب العلمية ببيروت،ط .الأولى.

)، قراءة في ضوابط التأويل وأبعادها المنهجية في الدراسات القرآنية المعاصرة ، بحث 2006 –رقية العلواني(.ألقي في ندوة دراسة التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية ببيروت